الواحة الملعونة

بقلم\ هبة اللكاوي

وقفت بعيدة متأملة نفسي في المياه الصّافية، أسمع أصوات خرير الماء... الطبيعة تتجلّى في لوحة باهرة الجمال.....أرى أشعة الشمس قد انعكست على لون الرّمال، فصارت من الذّهب الخالص أرتدي جونلة زرقاء وقميص بلا أكمام، على رأسي قبعة من الخوص لتحميني من أشعّة الشمس الحارقة التي لم تمنع نسمات الهواء أن تنفذ إلى مسامات جلدي المتعطشة إلى روح الحياة، إنّ أسعد لحظاتي حقا، هي تلك التي أكون فيها صديقة للعزلة، فما من يومٍ خذلتني فيه، أرى فيها أنسي وفيها المستقر والمستودع هاجت بي الذّكرى لأتذكر ذلك اليوم الذي أعلنوا فيه عن رحلة إلى تلك الواحة، رأيت صورا لها وقد بدت وكأنّها صورة أنيقةً لجمال لم تعتده عيناي... لم أنتظر كثيرا، عزمت على القدوم، وتحدثت مع القائمين على الرّحلة لأكون ضمن الأوائل الذين حجزوا مقعدًا، هاربة من ذكرياتي الموحلة بالأحزان، كلهم يأتون مع عائلاتهم إلى هنا، وأنا أنشد الوحدة بعيدًا عنهم...ولو أنني دريت المصير الأسود الذي كان بانتظاري ماكنت فكرت قط بهاأخذت أرمي الحصى واحدة تلو الأخرى في المياه، الأطفال يلعبون بعيدا، والعائلات تفترش الأرض...يتسامرون، تارةً يضحكون، وتارة يغنون، وفي لحظة أنصتَتْ لها أذناي جاء صوت بدا لي أنه مواء قطط فلم أعره انتباها، لأستمر في عزلتي الصّديقة، تكرّر الصّوت، لم أرتح كثيرا للوضع، بحثت عن مصدر الصوت، فإذا بقط أسودٍ يقف على النّاحية الأخرى من المياه يموء ولكن في صمت... ما لذي أحضر هذا القطّ إلى هنا؟ هل تعيش القطط في الواحات؟ متجاهلة أساطير القطط السّوداء، ذهبت إليه ببعض من الطعام... وصلت

إلى النّاحية الأخرى فإذا به اختفى في لمح .البصر... توجّست خيفة...ثم طمأنت نفسي بأنّي ربما أكون شردت قليلا في قط أسود هممت بالانصراف، لكني سمعت المواء من جديد، التفت إلى الصوت، فإذا بالقط الأسود فاغرًا عن أسنانه وعيناه تموجان بالضوء، وقد وقف على قيد أنملة مني، بيدين مرتعشتين وضعت له الطعام، فإذا به يختفي من جديد تبا لك أيّها القط اللّعين، هذا ما ينقصني عزمت أن أقطع علاقتي بعزلتي وأحتمي بتلك اللّوحات العائلية، وأنضمّ إلى مجلسهم عندما اقتربت لم تكن هناك عائلات ولا أطفال، كان السّراب فقط...والسكون يغلّف الحضور

يا إلهي، ما الذي أحضرني إلى هذا المكان... كادت الدّموع تفر من عيني، بحثت عن القائمين على الرحلة يا الله ساعدني... تقودني قدماي بسرعة العدّائين هنا وهناك، لكن لا أحد،.فإذا بي أرى نفسي وقد صرت آدم هذه البقعة ظهر لي القط الأسود من جديد...وقد تدلّى من فمه فستانا ملطخا بالدماءاستجمعت شجاعتي واقتربت، فإذا به يهرب، لكنّه كان على مرمى بصري هذه المرّة، فانطلقت بسرعة البرق، ظللت هكذا حتى وصلت إلى مكان فسيح وكانت الشمس على وشك الاختفاء من عالمي ظللت أحدق في المكان طويلا، وكان القط يقف بعيدا، حدثتني نفسي أن احتمي بلعنته لعلّها تحميني، لكن ما إن اقتربت حتى وجدت نفسي أتخبّط وأُوحِل في أرضٍ لينةٍ تختلف عن طبيعة المنطقة... نظرت إلى

الأسفل فهالني ما رأيت، وجدت جثة أحد ممن كانوا معي في الرحلة وقد فصل رأسه عن جسده... بأصوات اصطكاك أسناني وقدماي تقدمت في المسير... رأيت أحدًا أخر مقتولا بنفس الطريقة، وهنا رأيت عدة أطفال وقد تلونوا جميعا باللون الأزرق، لكن قتلهم كان أرحم كانت الأشلاء مجتمعة ثم استمريت...حتى رأيت الباقيين جميعا...وقد تكوّمت جثثهم يا الله ما الذي يحدث هنا، كل هذا والقط لازال هنا... هناك أصوات تشارك في زحام رأسي أسمع أصوات عويل الذئاب وصوت يناديني من بعيد:

– نادية... نادية

فجأة تراءى لي شخص يلوح لي كان يقف بجانب القحمدت الله في سري لربّما كان طوق نجاتي اقتربت منه، ... فاذا بي أرى شخصا طيب الملامح، اطمأنت له نفسي استقر بي الفضول حتى أسأله عن كلّ ما يحدث، كدت أفعل، لكنه أخذ يضحك ولسانه الذي يشبه الأفعى يمتد إليّ ليلمسني، وتحوّل سواد البؤبؤ لديه إلى لونٍ يشبه قوس قزح أدركت هنا اني هالكة لا محالة

– نادية... نادية... هل أنتِ بخير؟

نظرت إليه، إذا به نفس الشخص، لكن كما رأيته أوّل مرة، ووجدت الكثير من الأشخاص الذين كانوا معي في الرّحلة يلتفون حولي والقلق في أعينهم، ووجدت حقيبتي ملقاة على الأرض، وحبوب دواءٍ منثورة وقد بدت لي أنّها حبوب الهلوسة الخاصّة التي تخصّ نادين صديقتي...